على هامش العيد الألفى

لأبى العـــلاء

بقلم صديقه الأستاذ كامل كيلانى

[وهي صفحة من مقدمته التحليلية لرسالة الهناء ، إحدى رسائل المعرى المخطوطة . وستظهر للناس مشروحة مضبوطة بقلم الأستاذ عما قليل]

القدرة الالهية

يرى أستاذنا الجليل « أبو العلاء » — فيما يراه — أن قدرة الله ، سبحانه ، لا يعجزها شيء ؛ فاليَبيسُ مُستعيدٌ — بمشيئته — بعد اصفراره ، شبابه وخضرته ، مسترد — بعد مواته — حياته ونضرته

والنيران الملتهبة متنجر لهيبها — بأمره — مياهاً سائلة ، والطبيعة الإنسانية متحولة — بإذنه — من الغَدْر إلى الوفاء . والأغنام متغيرة طبائعها — بحكمه — مستبدلة بضعفها قوة ، وباستخذائها إقداماً وعزيمة ، متخيرة من عرين السباع سكناً تأوى إليه وتقر فيه

وهكذا يسترسل أبو العلاء فى خياله البارع ، وأسلوبه الساخر الفياض بالدعابة الفاسية والتهكم اللاذع ، والسخط المرير ، فيثبت لنا بما ألفناه من طرائق إثباته المبدعة أن الطبيعة الإنسانية لا سبيل إلى استقامتها واستوائها ، إلا إذا تغيرت طبائع الأشياء كلها ، وانقلبت حقائق الكون الثابتة ، فدبت الحياة فى الهشيم ، وتحولت النار ماء ، والأغنام المستضعفة سباعاً ضارية

وإلى القارئ النص العلائى الذى فصلناه :

« إذا أذن ربنا اخضر الدرين (اليبيس)

وتبجست — بالماء الإرين[1] (النيران)

ووفى لقرينه ، القرين ، وراحت الساجسية (وهى ضرب من الغنم) ومأواها العرين ...

وذلك — من القدرة — ليس ببديع ! »

(١) جمع إرة ، وجمعها على وجهين — كما يقول المعرى — إن شئت أن تجعله مثل الزبدين (بواو فى الرفع وياء فى النصب والخفض) . وإن شئت أن تجعل نونه مثل نون مسكين ، فتجرى عليها الاعراب

وفى رسالة الهناء هذه التى نجلوها لرواد الأدب العلائى فى عيده الألفي[1] يقرر لنا شيخ المعرة كيف يتحول الطبع الإنسانى من الكذب إلى الصدق ، ويسلك فى تقريره مثل ذلك النسق الفريد المبتدع الذى سلكه فى فصوله وغاياته ، فيتمثل صاحبه وقد انشقت له لجج البحار بإذن الله ، كما انشقت من قبل لموسى الكليم ، ثم يتمثل دهشة الأسماك — حينئذ — مما حدث ، ويتخيل حيتان البحر وهى تتحدث متعجبة متطلعة إلى تعرف اسم ذلك الشيخ العظيم الذى تمت على يديه المعجزة ، مضاعفة لصاحبه الثناء ، داعية له بطول البقاء ، وموصول السعادة والهناء ، مبتهلة إلى الله أن يجزل له فى عطائه ومكافأته ، فى دنياه وآخرته ، جزاء ما أسلف للناس من مكرمات ، وأسدى إليهم من حسنات

فإذا انتهى شيخ المعرة من هذا التمهيد ، راح يصف فى براعته النادرة ، وألمعيته الساخرة ، كيف تأذن القدرة الإلهية أن تخمد نيران الكذب ، ومتى تريح العالم من لهيبه المستعر ، الذى لا يُبقى ولا يَذَر

ولكنه يبنى آماله البعيدة على مقدمات تسبقها ، وهى فى قدرة الله هينة ، وإن كانت فى طاقة البشر مستحيلة التحقيق

فهو إذا شاء — سبحانه — أمر اللجج الملاح ، فأصبحت عسلاً سائغاً حلو المذاق ، وانقلبت ملوحتها المفرطة فى المرارة شهداً مفرطاً فى اللذاذة والحلاوة

وهو إذا شاء — سبحانه — جعل السفينة تمشى على اليابسة ، وتصبح قبساً متوهجاً من السَّنا والنور ، كأنما قُبِس لتوِّه من شعلة من النار ملتهبة . وليس هذا بالمطلب البعيد المنال ، متى أذن من أبدع الأكوان على غير مثال

وهو إذا شاء — سبحانه — أمر الريح أن تحمل السفينة وأن تطير بها فى أجواز الفضاء ، كما حملت عرش « بلقيس » فى غابر الزمان ، فإن القياس يجوِّز وقوعه ويرضاه ، والقدرة تُقرُّ حدوثه ولا تأباه

ولو شاء — سبحانه — لجعل أسماك البحر وحيتانه آمنات ممنعات ، فى رغد من العيش هانئات ، يتهادين فى ذرا الجبال الشامخات ، ويمرحن فى أرجائها الفسيحة منطلقات ، ويجرين

(١) ولد أبو العلاء يوم الجمعة عند مغيب الشمس ، لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان ، وتوفى ليلة الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ .

فى جنباتها مسرعات ، كما تجرى أسراب النعام فى واسع الفلوات ، زرافات وجماعات .

* * *

وهنا يتمثل « أبو العلاء » صاحبه ـ وقد تم له المراد ، وبلغ من غايته ما أراد ـ ويتمثل القدرة الإلهية التى لا يعجزها شىء ممتنع فى العقول ، وقد أذنت لياه البحر أن تعود إليه ، وأعلنت كلمتها بأن يفصلح ما فسد من الزمان ، ويستقيم ما اعوج من طبع الإنسان ، وتنطفىء نيران الإفك والبهتان

ومتى تحققت هـذه الخوارق والمعجزات ، انتصر الصدق على الأكاذيب والترهات . فلنرتقب مع شيخنا المعرى هذه النتائج الباهرات ، فلسنا يائسين من الفوز والظفر ، والعاقبة لمن تأنى وصبر

لعل الكثيرين من قراء « ابن الرومى » يذكرون ـ بهذه المناسبة ـ أسلوبه البارع فى سخريته من الوزير « أبى الصقر » حين ولى الديوان ، وعجب خصومه من تلك الطفرة ، وكيف تظاهر « ابن الرومى » باستنكار ما تخيله من دهشتهم فقرر لهم معاتباً ساخطاً أن ظفره بذلك المنصب ليس أعجب من ظفره بالانتساب إلى أسرة « شيبان » العربية الكريمة مع أنه من الأعجام ، ولكن الحظ السعيد يصنع الأعاجيب ، والقدرة الإلهية تفعل ما تشاء من الغرائب ، ثم ختم دعابته القاسية بقوله :

إن للحظ كيمياء ، إذا ما مس كلباً أحاله إنسانا
يفعل الله ما يشاء ، كما شا ء ، متى شاء كائناً ما كانا

وللمعرى فى هـذه الرسالة مثل ما له فى غيرها من منثوره ومنظومه : فنون معجبة فى وصف ما تبدعه القدرة من تصوير الأمانى والأحلام ، وبعث الهواجس والأوهام ، شخوصاً بادية للعيان ، ماثلة فى الخلد والجنان

وهو لا يفتأ يتمثل جميع الكائنات ، من جماد وحيوان ونبات ، وكواكب وسيارات ، وحروف هجائية وكلمات ، وقوافى وحركات ، وأصفار وأعداد وأرقام مضروبات ومقسومات ، كأنما هى أناسى مثلنا ، موفورة الإحساس بالحياة ، تألم مثل ما نألم ، وتتناجى كما نتناجى ، ويعرض لها كما تعرض لنا ـ ألوان من الأمانى والرغبات ، تستحر بينها ضروب الفتن والعدوات وتملن فى منطق ـ هو على خفائه عنا ـ بليغ فصيح ، رائع التقديس والتسبيح ، تبتهل بصادق الدعوات ، فى الغدوات والآصال والروحات ، لخالق الأرضين ومبدع السموات

فلا غرو إذا رأيناه يتمثل ـ فى هـذه الرسالة ـ طريقاً ضيقاً يتهل إلى خالقه أن يجزى صاحب « المعرى » أحسن الجزاء مكافأة له على ما بذل من صالح المسعى ، ويتجه الدرب إلى الله أن يبدل من شعابه الضيقة ، مسالك وطرقاً فسيحة الرحاب ، تغدو ـ لفرط سعتها ـ كأنها الصحارى والسباسب ، لا تضيق بالعدد الأوفر من الجيوش الحاشدة والمواكب . وأن تتبدل أحجار الأكمة الخشنة ، فتصبح بعد خشونتها ناعمة ، كأنها لملاستها رق نعام

ثم يتمادى فى خياله فيتمثل القدرة الإلهية قد بدلت لصاحبه أحجار التلال موائد حافلة بلذائذ الأطعمة والأشربة ، يصيب منها الجائع ويرتوى الظمآن كما شاء ، لا يتكبد فى ذلك مشقة ولا عناء

وللمعرى ـ فى غير هذه الرسالة أيضاً ـ من روائع الصور الفنية التى يتمثل فيها من عجائب القدرة الإلهية ، ما لا تتسع له هذه الإلمامة الموجزة ، فلنجتزىء من ذلك بوجازة خاطفة ، تاركين التفصيل لفرصة أخرى . فهو يقول فى فصوله :

« يقدر الله على المستحيلات : رد الفائت ، وجمع الجسمين فى مكان ، وما لا تحتمله الألباب ، إذ كان لا ينسب إلى عجز أو انتقاص . فإذا مررت بعود بال ، فاعلم أن الله يستطيع أن يكسوه أخضر كخضرة الحسام ، حتى يورق ورقاً ، كعدد الرمال ، ويقف على كل ورقة ورقاء (حمامة) تعبده بألحان معبديات (منسوبة إلى « معبد» المغنى المعروف) » أو يقول :

وفى قدرة الخالق أن يجعل الراحة (بطن اليد) ذات ذوائب ، والهامة (الرأس) كفائور اللجين (خوان الفضة) وأن يجرى الفضة من الفجاج » أو يقول : « والله ـ بقدرته ـ يطير ذوات الأخفاف »

ثم يسبح الخيال بأبى العلاء . فيستبق الأجيال ، حتى ليتمثل عصرنا الحاضر : عصر السرعة الخاطفة وما يتلوه من عصور ، متنبئاً بما كشفه العلم وما لم يزح الستر عنه إلى اليوم ، فيقول :

« إن شاء المليك قرب النازح وطواه ، حتى يطوف الرجل ـ فى الليلة الدانية بياضُ الشفق من حمرة الفجر[1] طوفه بالكعبة حول « قاف » (وهو ـ فيما تقول الأساطير جبل محيط بالأرض) ، ثم يؤوب إلى فراشه والليلة ما همت بالإسحار »

(١) يعنى فى الليلة القصيرة التى يقترب نهاية شفقها من بداية حمرها